السودان بعيون زعماء المعارضة

حوارات مع رفعت السعيد وضياء الدين داوود وإجلال رأفت

كان من الضروري لاستكمال هذا الملف أن نَعْرف كيف تفكّر أحزابُ المعارضة المصرية في موضوع السودان، وخاصةً أحزابها الكبيرة. لهذا جاءت هذه الحوارات مع الدكتور رفعت السعيد، أمين عام حزب التجمع؛ والأستاذ ضياء الدين داود، رئيس الحزب الناصري؛ ثم الدكتورة إجلال رأفت، عضو الهيئة العليا لحزب الوفد. (أ. خ)

د. رفعت السعيد

هل هناك شخص مسؤول عن الملف السوداني في حزب التجمع؟

لدينا أمانة للشؤون العربية. والمسؤول عن الملف السوداني فيها هو حلمي شعراوي. وقد بدأ العمل بذلك منذ خمس سنوات

ما تصور الحزب للعلاقات المصرية ـ السودانية ماضيًا؟

في عهد عبد الناصر كانت مصر تتصرف بحكمة شديدة مع السودان والسودانيين عامةً. الشعب المصري يَعْشق السودانيين. وأَذْكر عندما كنتُ هاربًا من البوليس السياسي في مصر عام ١٩٥٣ أنّ إخوتنا السودانيين كانوا وحدهم الذين يستطيعون حلّ كلّ مشاكلنا وحين أُلقي القبض علينا في ذلك العام كان نصفُ المتهمين من بيننا سودانيين وضعونا جميعًا في المعتقلات، فذهب شيوخُ القبائل السودانية إلى صلاح سالم، وقالوا له: «لن نعود إلى السودان بغير أبنائنا.» فأَصْدر سالم تعليماته بالإفراج عن السودانيين وحدهم، لأنّ طائرة شيوخ القبائل كانت في انتظارهم وهكذا فوجئنا في المساء بفتح أبواب الزنازين والإفراج عن السودانيين من دون أوراق أو تعليمات رسمية! أقول ذلك لأدلّل على أنّ العلاقات كانت طيبة جدًا زمنَ عبد الناصر، بل وفي عهد الملك فاروق كانت العلاقات طيبة أيضًا. وكان هناك في الأزهر رواقٌ معروفٌ اسمُه رواق شمال السودان لتعليم وإطعام السودانيين وكانوا يبيتون حيثما يريدون، ويتعلّمون مجانًا حتى عندما كان التعليم بفلوس، وكانوا يتلقون راتبًا شهريًا من الحكومة، وبطاقةَ سفرٍ ذهابًا وإيابًا (من وإلى السودان) والمثقفون السودانيون تربّوا في أحضانِ مصر فيما مضى وفي عهد عبد الناصر، ولكن كلّ ذلك توقّف منذ أن وصل السادات إلى الحكم

أيامَ السادات كان التعليم للمصريين مجانًا، وللسودانيين بخمسة آلاف جنيه للفرد. إنّ مصر الرسمية بعد السادات أَجهضتْ علاقتَها بالسودان. وتعرضت العلاقة فيما بعد لارتباك شديد وخلل في الأداء. وابتلعتْ مصر طعمَ أحد الانقلابات السودانية، متوهّمًا أن الانقلاب سيكون لصالحها

كيف ترى العلاقة حاليًا؟

حاليًا لا بدّ من الانطلاق من حقيقة ثابتة هي أنّ لمصر مصالحَها في السودان. وبدون مياه النيل لا حياة لمصر. وبالتالي فإنّ الرباط المصري ـ السوداني أبديّ. القضية هي: كيف يكون شكلُ العلاقة؟ الإجابة عن هذا السؤال تتطلب نمطًا جاذبًا من الحكم المصري، نمطًا مغريًا للآخرين بالتقرب منه النموذج المصري السائد حاليًا غير جاذب للمتعلم السوداني نحن نقرأ بنهم ماركيز، لكنّنا لا نقرأ صفحةً واحدةً من الأدب السوداني. هم أيضًا يفعلون ذلك في السودان، لأنّ مصر غير عابئة بهم. عندنا مكتبة الأسرة التي تُصدر مئات الكتب، ولا أحد يهتم بإرسال نسخ منها إلى الخرطوم. لقد اختفى حاليًا الرابطُ الحضاري والثقافي الذي نشأتْ به ومنه العلاقةُ. هناك دور سياسي وتعليمي وثقافي لا بدّ لمصر أن تقوم به، لكنّها لا تفعل

وكيف ترى مستقبل هذه العلاقة؟

في الحقيقة لا مستقبل لهذه العلاقة ما لم نقم بما أشرتُ إليه سابقًا. لا بدّ لمصر أن تَرْسم سياسةً واضحةً بالنسبة إلى علاقتها بالسودان وأبنائه ومن ناحيتنا، فإنّ حزب التجمع يحاول على قدر استطاعته أن يقدِّم شيئًا للعلاقة، ونعتبر أنّ ما نقوم به من أجل خلق نموذج جذّاب اقتصادي وسياسي هو جهدٌ على هذا الطريق. كما أنّ لنا علاقاتٍ جيدةً بالتجمع الديموقراطي السوداني، وقام الصادق المهدي بزيارتنا، ودعونا القادة السودانيين الآخرين إلى زيارات مماثلة.

ضياء الدين داود

هل هناك شخص مسؤول عن الملف السوداني في الحزب الناصري؟

لا يوجد. لكنّ هناك مسؤولاً عن الشؤون العربية عامةً.

ما تصور الحزب للعلاقات المصرية ـ السودانية ماضيًا؟

إنّ هناك علاقةً أبديةً تَرْبط مصرَ والسودان، والنيل شريانُ هذه العلاقة. ودعْنا نبدأ من الماضي القريب، أيْ مع بزوغ ثورة يوليو ١٩٥٢. فقد حصلتْ مصر آنذاك على استقلالها، ولكنّ السودان كان مايزال تحت الحماية البريطانية. وحينما طُرحتْ فكرة الاستفتاء على مصير السودان، كان موقف عبد الناصر هو أنّ الوحدة لا يُمْكن أن تتم قسرًا، وأنّ هناك تيارات سودانية سياسية وقفتْ ضد استمرار دولة وادي النيل. وأخيرًا وجدتْ ثورة يوليو نفسَها أمام حلين: إمّا القبول باستمرار الاحتلال البريطاني للسودان، أو القبول بالاستفتاء. وجاءت نتيجة الاستفتاء: استقلال السودان أو انفصاله.

لكنّ ذلك لم يعرقل العلاقاتِ الطيبةَ. فقد كانت مصر في تلك المرحلة مصدرَ إشعاع وإلهام ليس للسودان فحسب بل ولأفريقيا كلها. ومدت الثورةُ يدَها بالتعاون مع السودان لصالح وادي النيل. وسأعطيك مثالاً واحدًا: حين ظهر الخلافُ حول منطقة حلايب أيام عبد الناصر، قال عبارته المشهورة: «إنّنا لن نختلف على قطعة أرض.» وكانت هناك سياساتٌ تنمويةٌ وزراعيةٌ تضع مصالح البلدين في اعتبارها ولا تفرّق بين السودان ومصر. وكان من الممكن لبناء السد العالي أن يفجِّر العلاقةَ تمامًا، لولا قوةُ تلك العلاقة وحرصُ الثورة عليها. كان السودانيون يعانون في منطقة السدود في جنوب السودان من مشكلة الماء المهدور، فقامت مصرُ ببناء مختلف المشاريع في السودان. كان هذا كلّه من الأمور الطبيعية لأنّ علاقة مصر والسودان هي أقوى علاقة بين طرفين في العالم العربي وفي أفريقيا. لكنّ العلاقات بدأتْ تتدهور مع وصول أنور السادات إلى الحكم عندنا، والترابي عندهم. فهذه الفترة ألقت على وجه السودان التحرري وجهًا آخر متعصِّبًا، كما تخلّت مصر خلال المرحلة ذاتها عن مسؤوليات تطوير العلاقة.

كيف ترى العلاقة حاليًا؟

في الحاضر ليست لمصر أيةُ سياسة خارجية، خاصةً في ما يتعلق بالسودان. والسياسة المصرية الخارجية إجمالاً متأثِّرة بالموقف الأمريكي عامةً، وبالذات في السودان. وبالرغم من ذلك أقول إنّ العلاقات قد تَضْعف وقد تقوى، لكنّها لن تتوقف. قد يَمْرض جزء من الجسم أو يَنْشط، لكنّ الجسم عامةً يظلّ حيًا. العلاقة الآن تتعرَّض لمخاطر كثيرة، منها غيابُ سياسة مصرية محددة كما قلنا، ومنها أيضًا التدخلُ الإسرائيلي في السودان. وأَذْكر، حينما دار حديث في مجلس الشعب عن تعاون مصري ـ إسرائيلي في مجال الزراعة، أنّني رفضتُ ذلك بشدة، وقلتُ إنْ كان الحديث يدور عن زراعة الصحراء فهناك خبرة لدى المغرب وتونس يمكن الاستعانةُ بها. ومازلت أقول إنّ بوسع مصر أن تساعد السودانَ بخبرتها الزراعية، أما إسرائيل فإنّ لها أهدافًا أخرى من دخولها السودان، وعلى رأسها التحكُّمُ في الماء الذي يصل إلى مصر.

كيف ترى مستقبل هذه العلاقة؟

المستقبل يتوقف على الدور الذي ستقوم به مصر. هناك ضرورة لأن تتصدى مصر لمشكلات العلاقة، كالتوسع في تعليم السودانيين هنا، والخدمات التي تقدَّم إليهم، والمساعدة في حل المعضلات الاقتصادية السودانية، وتنمية الثروة الحيوانية، وإنشاء سوق مشتركة، وتحسين وسائل النقل بين البلدين.

السعيد: النموذج المصري غير جاذب للسوداني
داوود: ليست لمصر أيّ سياسة خاصة تجاه السودان
رأفت: برامج التعليم يجب أن تقدّم معلومات أوسع

د. إجلال رأفت

هل هناك شخص مسؤول عن الملف السوداني في حزب الوفد؟

نعم أنا المسؤولة عن الملف السوداني، وتحديدًا أنا رئيسة لجنة السودان بالحزب. وقد كانت هذه اللجنة قائمةً منذ بداية تشكيل الحزب، لأنّ قضية السودان كانت ومازالت على رأس مهام حزبنا. جدير بالذكر أنّه منذ أيام النحّاس باشا كانت هناك وزارةٌ مخصّصةٌ للسودان في كل حكومة وفدية. وتقوم اللجنة بجهودها منطلقةً من أهمية العلاقات الشعبية، ومن أنّ هذه العلاقات يجب ألاّ تقتصر على الحكومات، هذا أولاً. وثانيًا، نحن ننطلق من أنّ الموضوع السوداني هو قضية مصرية قومية، ومن ثم لا بدّ لنا أن نتفاعل مع كل القوى السياسية السودانية.

ما تصور الحزب للعلاقات المصرية ـ السودانية ماضيًا؟

قد لا يحتاج ماضي العلاقة الوثيق إلى برهان. المصريون كانوا دائمًا يعتبرون السودانيين إخوة لهم، ويعتبرون أنّ مصر والسودان معًا يشكّلان وادي النيل بدولته الواحدة. لكنّ السودان الآن بلد مستقل، وقد اختلفت المسألة مع وجود تيارات استقلالية في السودان لا يُمْكن تجاهُلُها. لهذا نحن لا نتحدث عن الوحدة كما كان الحديث يدور في الماضي، بل عن علاقات مميزة بين الطرفين. فكرة التكامل أيضًا مقبولة ومطلوبة، شرط أن تكون بشكل مدروس وتدريجي، أيْ أن نبدأ بالتعاون تجاريًا وزراعيًا وثقافيًا وسيؤدي ذلك عند مرحلة معينة إلى التكامل.

كيف يرى حزب الوفد العلاقة حاليًا؟

إنّ السياسة المصرية الخارجية بالنسبة إلى السودان غير واضحة، على الأقل بالنسبة إليّ. هناك فقط بعضُ الثوابت، لكنّ السياسة المصرية في هذا المجال مجرد ردود أفعال لأحداث خارجية هناك تحركات دبلوماسية بدأتْ مؤخرًا، لكنْ من غير الواضح في أيّ اتجاه تمضي. وبداهةً فإنّ العلاقة في الحاضر تتأثّر سلبًا بأوضاع البلدين الداخلية. المسألة الأهم بالنسبة إلى السودانيين ـ وأنا لا أتحدث عن النظام الرسمي ـ هي حل مشكلة السودان وأزمة الشمال والجنوب. حين تُحلّ هذه المشكلة سيكون الظرفُ مواتيًا لكي نبدأ في دراسة كيفية تطوير العلاقة وبدء مشروع التكامل.

هناك سبب آخر للشلل الذي يصيب العلاقات في الحاضر، وهو أنّ المعارضة الشعبية السودانية لم تشارك في رسم صورة التكامل أو ملامح المستقبل، وهو اعتبار سيعرقل تطور العلاقة إذا لم نأخذه في الاعتبار.

كيف يرى الحزب مستقبل العلاقة؟

بدايةً على مصر أن تكفّ عن القول إنّ هدفنا الوحيد في السودان هو الماء. صحيح أنّ مياه النيل تشكّل أهمية بالغة، لكنّها ليست كلّ شيء. كما أنّ ذلك يُغْضب السودانيين ويجعلهم يردِّدون: «أنتم في مصر تعتبروننا مجردَ مَعْبرٍ للماء.» إضافةً إلى ذلك، فإنّ أية علاقات لا بدّ أن تراعي النِّدّية والمساواة؛ فلا يُعْقل أن نُصَدِّر للسودان أفلامَنا وكتبَنا دون أن نهتمّ بالتعرف إلى ثقافتهم وكتبهم. على سبيل المثال لا بدّ لبرامج التعليم عندنا، خاصةً في المراحل الأولى، أن تشتمل على معلومات أوسع عن السودان وتاريخه وثقافته. لدينا شباب يتخرّجون من الجامعات ولا يعرفون شيئًا عن السودان. كيف يُمْكن هؤلاء الشبابَ أن يتعاونوا مع بلد مجهول لهم ثقافيًا وفنيًا وتاريخيًا؟

أجرى الحوارات: أ. خ.